محمد سليمان *

هموم شعرية

في أوائل السبعينيات التقينا الشعراء المصري حسن طلب واليمني حسن اللوزي والأردني عبدالرؤوف يوسف وأنا، وقررنا إصدار مجموعاتنا الشعرية الأولى التي ستهز العالم العربي وتبدل خريطة الواقع الشعري، وبعد شهور قليلة صدرت مجموعة مشتركة بعنوان «أوراق اعتماد لدى المقصلة» للشاعرين اليمني والأردني، ثم صدرت مجموعة حسن طلب «وشم على نهدي فتاة» وكنت قد أعددت مجموعتي للنشر وأرسلت مذكرة إلى شركة الأدوية التي أعمل بها لكي أبلغها بمشروعي الشعري، وأطالبها بتحمل نفقات إصدار المجموعة التي قُدرت في ذلك الوقت بمبلغ 150 جنيهاً، وقد وافقت الشركة وسلمتني شيكاً بالمبلغ المطلوب، لكن الشاعرين أمل دنقل ومحمد عفيفي مطر نصحاني بتأجيل نشر المجموعة والسعي أولاً لنشر قصائدي في الصحف والمجلات المصرية والعربية، والمشاركة في الأمسيات الشعرية لترسيخ وجهي كشاعر.

وأعلن أمل أن الشعراء الجادين ينقلبون على أنفسهم ويحذفون أحياناً الكثير من القصائد التي تحمسوا لها في البداية، ومن ثم فتأجيل النشر يمنح الشاعر فرصة اختيار أجمل قصائده وأقواها لمجموعته الشعرية، وكان عليّ أن أعيد إلى الشركة شيكها مصحوباً بمذكرة أخرى أتحدث فيها عن تأجيل النشر وفوائده، لكن إغلاق المجلات الأدبية والحرب التي أعلنت على الشعراء والكتّاب في السبعينيات أربكتنا وقلصت وأعاقت نشاطنا الشعري أنا وزملائي.

فقد كان كل ما نُشر لي في تلك الفترة ست قصائد نشرها صلاح عبدالصبور ورجاء النقاش في الفترة القصيرة التي توليا فيها رئاسة تحرير مجلتي "الكاتب" و"الهلال"، وفي الفترة نفسها نشرت لي ثلاث قصائد أخرى خارج مصر إحداها في بيروت والثانية في بغداد والثالثة في مجلة البيان الكويتية.

وبسبب هذا الحصار تجمع الشعراء الشبان الحالمون بالتحديث وبالقصيدة الجديدة، وشكل حسن طلب وحلمي سالم ورفعت سلام وأمجد ريان وجمال القصاص جماعة «إضاءه» وشكلت مع عبدالمنعم رمضان وأحمد طه وعبدالمقصود عبدالكريم ومحمد عيد إبراهيم جماعة «أصوات» ومن شعراء الجماعتين برز جيل السبعينيات الذي حارب وحورب، واتهم بالتخريب وانتهاك المقدسات، والانشغال بالقضايا الكبرى، والإيغال في التجريب والغموض.

وبسبب هذه التُهم تحاشت دور النشر القومية التعامل مع الشعراء، وظلت تراوغ أو تؤجل أو تفتش عن مبرر ما للاعتذار عن النشر، وتطلب من لجان القراءة والفحص إيجاد هذا المبرر أو اختراعه أحياناً، وقد قرأت في عام 1981 تقريراً عجيباً عن ديوان لي يشيد فيه الفاحص بالمستوى الفني للقصائد، ثم يوصي هيئة الكتاب بالاعتذار عن نشره لأن الشاعر كما جاء في التقرير «متأثر بالتيار الإلحادي الفرنسي» ودلل الفاحص على هذا التأثر بعبارة «ما من حب سعيد» للشاعر الفرنسي «أراجون»، وكنت قد صدّرت بها إحدى قصائد الديوان.

وقد ظل هذا الحصار قائماً حتى أواخر الثمانينيات ثم بدأ في الانحسار عام 1990 عندما فتحت هذه الدور أبوابها لشعر السبعينيات، وأصدرت عشرات الدواوين التي أربكت القراء والنقاد الذين انصرفوا عن الشعر وانشغلوا بمتابعة الرواية والحديث عن زمنها، وكان من الطبيعي أن يؤدي تراكم النشر إلى بروز بعض شعراء هذا الجيل، وإلى تواري البعض الآخر وإلى تعديل مسارات شعرية عديدة، لكن المهتمين بالشعر خصوصا في العالم العربي مازالوا بعيدين عن منجزات هذا الجيل، ومازال شعراؤه شبه مجهولين بسبب الكسل النقدي والإعلامي والانحدار الثقافي العام.

في المجتمعات المتخلفة تتجاور الأضداد، أكواخ الصفيح والقصور والأمية والشعر الطليعي، ويشعر المبدعون أنهم يكتبون لأنفسهم، وأن أحداً ما قد عزلهم، وبوسعك أن تكتشف عمق هذه العزلة عندما تشارك في ندوة أو أمسية شعرية قاهرية، وترى الوجوه نفسها وجوه الشعراء من كل الأجيال وبعض النقاد، الأمر الذي يذكرنا بالكاتب الألماني الكبير هيرمن هسه وروايته «لعبة الكريات الزجاجية» واللاعبين الذين يكدون في غرف مُغلقة ومعزولة تماماً للحصول على رتبة أستاذ اللعبة.

وفي زيارتي الأخيرة لإحدى أشهر مكتبات وسط القاهرة شكا البائعون عزوف الناس تماماً عن الشعر، وركود دواوين الشعراء النجوم والمثير أن الأجيال المختلفة مازالوا رغم ذلك يصدرون البيانات ويتقاتلون في الصحراء.

* كاتب وشاعر مصري

أحمد مطر *

حديقة الإنسان: هيرجيه... روائي بريشة رسام (1-2)

في هذا اليوم (الثاني والعشرين من مايو 2009) تحل الذكرى الثانية بعد المئة لميلاد الرسام البلجيكي الشهير (هيرجيه)، أحد أهم رواد فن القصص المصورة في العالم، ومبتكر شخصية الصحافي الشاب (تان تان) الذي طبقت شهرته الآفاق، من خلال مغامراته التي انتشرت بمختلف اللغات الحية، وأقحمت معها رسامها في دائرة الأضواء طيلة حياته، على الرغم من تواضعه الجم وكراهيته للإطراء المفرط وازدرائه لبريق الشهرة.

و(هيرجيه) هو اسم فني نحته الرسام (جورج ريمي Georges) من الحرفين الأولين لاسمه الثاني والأول، كما ينطقان بالفرنسية: (هير R) و(جيه G) وظل يوقع به رسومه منذ عامه الثاني والعشرين حتى وفاته باللوكيميا في مارس 1983 عن ستة وسبعين عاما.

ولأن أحدا لم يستطع أبدا أن يواصل تأليف قصص (تان تان) ورسمها بذات الأسلوب الذي كان يقدمه هيرجيه فقد توقف عددها عند حدود الثلاث والعشرين مغامرة التي أنجزها الرسام.

ومع ذلك فإن العجب لا ينتهي من أن هذه المغامرة بعددها المحدود، ظلت حية ومتجددة وتجد قراءها في كل زمان، مثلما تجد، على الدوام، اهتماما متواصلا من النقاد الجادين.

فبعد مرور ستة وعشرين عاما على وفاة هيرجيه، لاتزال قصص (تان تان) تستقطب اهتمام الناس برغم اختلاف طبائع وأمزجة الأجيال، وتطبع كل سنة بلغت جديدة عبر العالم، حتى بلغ ما بيع منها، منذ ظهورها حتى اليوم، أكثر من مئتي مليون نسخة في أكثر من ستين لغة!

وعلى الرغم من أن فن القصص المصورة (الكوميك) هو ابتكار أميركي خالص، منذ أواخر القرن التاسع عشر، فإن (هيرجيه) برسمه مغامرات (تان تان) عام 1929 قد استطاع أن يكون رائدا أصيلا لهذا الفن، بعدما نقله من مجال الموضوعات الآنية الخفيفة أو التهريج الفارغ، إلى ميدان الحبكة الروائية المدروسة، كما طبعه بطريقته المميزة التي تضع الشخصيات في منطقة وسط بين (الكارتوني) و(الواقعي).

وإذا كان الفرنسيون قد ملكوا زمام هذا الفن لاحقا، فإن ريادة (هيرجيه) كانت المحرك الفعال الذي بسط أثره على كبار الفنانين الفرنسيين في هذا المجال من أمثال (أودرزو) رسام معامرات أستريكس، أو (موريس) رسام مغامرات لاكي لوك، وغيرهما من المميزين، برغم اختلاف الأساليب والموضوعات.

وأكثر ما يثير الدهشة هو أن قراءة مغامرات (تان تان) لم تقتصر، يوما، على الأطفال، بل تعدتهم إلى البالغين، وحتى الكهول والشيوخ.

وفي هذا الاتجاه، يذكر (مايكل فار) في مقالة له نشرت في مجلة (الكتب) الفصلية التي تصدرها مكتبة (ووترستون) أنّ محرر فرنسا للرئيس الأسبق (شارل ديغول) كان من قراء تلك المغامرات، وأنه قد صرح ذات يوم بأن (تان تان) هو منافسه العالمي الوحيد! وكفى بتلك الشهادة الظريفة أن تنهض كدلالة على عمق الأثر الذي تركته تلك المغامرات في نفوس القراء من مختلف الأجيال في جميع دول العالم.

ولعل السر، وراء عمق هذا الأثر وسعته، يكمن في أن (هيرجيه) لم يكن مجرد رسام قصص فقط، بل كان، على نحو ما، روائيا ممتازا، وباحثا جادا ومدققا.

وما يدلنا على الأثر المهم لبحوثه الجادة في إعلاء أعماله وجعلها خالدة هو أن قصصه الأولى، خاصة (تان تان في بلاد السوفييت) و(تان تان في الكونغو) قد كانت بدائية إلى حد ما، إذ لم تكن سوى تجميع للقصاصات الأسبوعية التي كان ينشرها في ملحق الأطفال لجريدة (فانتييم) البلجيكية، وكان يغلب عليها طابع النكت التي لا رابط بينها سوى شخصية (تان تان) الذي شاء الرسام أن يجعله محررا صحافيا يزور البلدان البعيدة ليزود الجريدة بتقارير عنها.

ونتيجة لتلك الخفة التي كان الرسام يتعامل بها مع مواضيعه، وعدم دقة معرفته بشؤون تلك البلدان أو بطبائع أهلها، فقد تلقى نصيحة ثمينة من أحد المشرفين على تلك الجريدة الكاثوليكية، دعاه فيها لأن يسعى إلى التعرف على أحوال البلدان وطرائق عيش شعوبها، قبل أن يرسم عنها، لكي تكون قصصه أكثر صدقا وإقناعا.

وذلك ما فعله (هيرجيه) لاحقا، وبذل من دونه جهودا حقيقية ومخلصة، حتى تحول ببطل مغامراته من (الصفر) إلى (البطولة المطلقة) كما عبر عن ذلك (توم مكارثي) في كتابه (تان تان.. وسر الأدب) الذي صدر عن مطبوعات (غرانتا) خلال عام 2005، والذي عني، على وجه خاص برصد الجانب الأدبي في مغامرات (تان تان). وأذكر أن الملحق الأدبي لجريدة (الغارديان) قد اهتم بنشر فصل من الكتاب عند صدوره، وذلك لأهمية السؤال الذي طرحه وحاول الإجابة عنه، عما إذا كان هيرجيه، في أعماله، رسام مغامرات أم روائيا؟

وقد خلص إلى القول بأنه كان مزيجا من الاثنين، وأحسب أن هذا القول هو أبلغ تكريم للفنان الكبير.

* شاعر عراقي

رزان زيتونة *

هموم التنين الصغير

جميع الشرور والمظالم قابلة للتأويل وإعادة التأويل لتمسي خيرا أو عدالة من نوع خاص أو ممارسات غير محددة المعالم ولا تقتضي اتخاذ موقف منها سلبا أو إيجابا؛ طالما أن الضرر لا يصيب ذات الشخص أو أحد أصوله أو فروعه المباشرين، فالدنيا بخير وعامل المناعة الذاتية يشكل طاردا للمنغصات كلها القادمة عبر العالم الخارجي.

ويبدو أن أجيالا عديدة نشأت على مبادئ التربية التي اعتمدها والد «التنين الصغير»، تلك الشخصية اللطيفة من شخصيات الرسوم المتحركة التي عرضت قبل سنوات طويلة، وكان جلّ أملها في «الحياة» أن تعمل في مجال الإطفاء.

وإذ يهرع التنين الصغير للمساعدة في إطفاء حريق صارخا «هناك حريق في البلد»، ينهره والده، التنين الكبير بالقول «ما دخلك أنت يا ولد»!

ويبدو أن «المبادئ» التي تضمنتها أغنية المقدمة في المسلسل الكرتوني ذاك، لقيت هوى في نفوس الآباء والأمهات، وأمست حكمة تتناقلها أجيال وراء أجيال. فأصبح الكل آباء والكل أولادا وفقا للموقف وحسب المقتضى. الآباء حين يتمثلون دور التنين الكبير في توزيع النصائح من نوع «الهس» و«الصه» وعدم التدخل حيثما تكون هناك حرائق أو دخان ينبئ بحريق ما. ولا يرتبط ذلك بحال من الأحوال بمفهوم الخصوصية واحترام نطاق الحياة الخاصة للآخرين. فالتنين الكبير لا يجد بأسا في التدخل في كل صغيرة وكبيرة في حياة الآخرين، بدءا من طريقة ارتداء ثيابهم إلى ذوقهم في الطعام إلى عدد أطفالهم. ولا يمل ولا يكل من تقييم سلوك الآخرين وفكرهم وحرصه الشديد على ألا يختلفوا عنه حتى لو كان في قرارة نفسه يتمنى لو أنه هو من لا يختلف عنهم. مبدأ عدم التدخل يطبق فقط حين يتعلق الأمر بما يجلب صداعا أو يخلق احتمالا للإصابة به من قبيل ما يتعلق بالشأن العام وهمومه. ويغدو الجميع «الولد» بغض النظر عن واقعة يتمهم في أغلب الأحيان! وبغض النظر عن عمرهم أو جنسهم أو درجة تعليمهم ومستوى وعيهم، بحاجة للنصح والتوجيه والردع والمشورة النفسية أحيانا، طالما أنهم تمثلوا التنين الصغير، ولم يصبروا على رؤية الحرائق تندلع أو تكاد فيما يهمس متمثلو التنين الكبير بكوني بردا وسلاما وهم يغلقون أبواب دورهم دونها معتقدين أنها لن تطولهم يوما.

والتنين الصغير «ولد عنيد» في وصف والده الكرتوني فقط، أما في الحياة الواقعية، فهو مجنون وغريب الأطوار ويتدخل فيما لا يعنيه ويناطح الصخر ويأتي لنفسه بالبلوى وأخواتها. هذا على الرغم من أنه في أحاديث النميمة المغلقة، يظهر كل الآباء بمظهر التنين الصغير، تذمرا وغضبا وانعدام رضا واختناقا بدخان كثيف يتسرب من جميع الثقوب التي لم يجدوا وسيلة لغلقها، إنما بغير رغبة أو استعداد للمشاركة في تغيير واقع الأمور التي يتذمرون منها.

والتنين الصغير، لا يفهم سبب اغترابه هذا عن محيطه، وسبب الفجوة الكبيرة في رؤية الأمور بينه وبين الآخرين. يستعين حينا بالكواكبي وما رآه في طبائع الاستبداد من فساد للعقول والنفوس وتسيد الخوف والامتناع عن كل اعتراض أو انتقاد أو جهر بالرأي. أو هو يبحث عن تفسير في تعب الناس وقلة حيلتهم وصراعهم اليومي من أجل البقاء على قيد الأمان. أو يعزو ما هو واقع إلى التأثير البالغ الذي أوقعه التنين الكبير في نفوس من تعهدهم تربية وتنشئة وتثقيفا!

ومع ذلك، فهو لا يجد في ما سبق كله سببا لنعته بما ينعت به والنظرة التي ينظر بها إليه من قبل أولئك، على منطق لا يطفئون النار ولا يتركون أحدا يطفئها! ولا يعلم كيف يتقلبون بين السكينة والغضب وبين النعيم والجحيم من لحظة إلى أخرى، ما بين الأبواب المغلقة والأبواب المشرعة، ولا ماذا يريدون وإلام يطمحون ومن هو مثَلهم ومن هو مذمومهم.

والتنين الصغير، يفضل بلا منازع، عالم الرسوم المتحركة، لأنه أوسع وأرحب وأكثر عقلانية واتزانا وأكثر «تنينية» أو إنسانية إن شئنا القول، وحيث لا يضطر إلا لمواجهة والده التنين والذي يستسلم في النهاية لحماسه وإيمانه. وهو فضلا عن ذلك، يحمل إمكانات أكثر بما لا يقاس، ليكون ذاته بمعزل عن هذا الاضطراب والتشوش الذي يلفه حيث يدير وجهه في عالم الواقع، عالم الرسوم غير المتحركة أبدا.

* كاتبة سورية

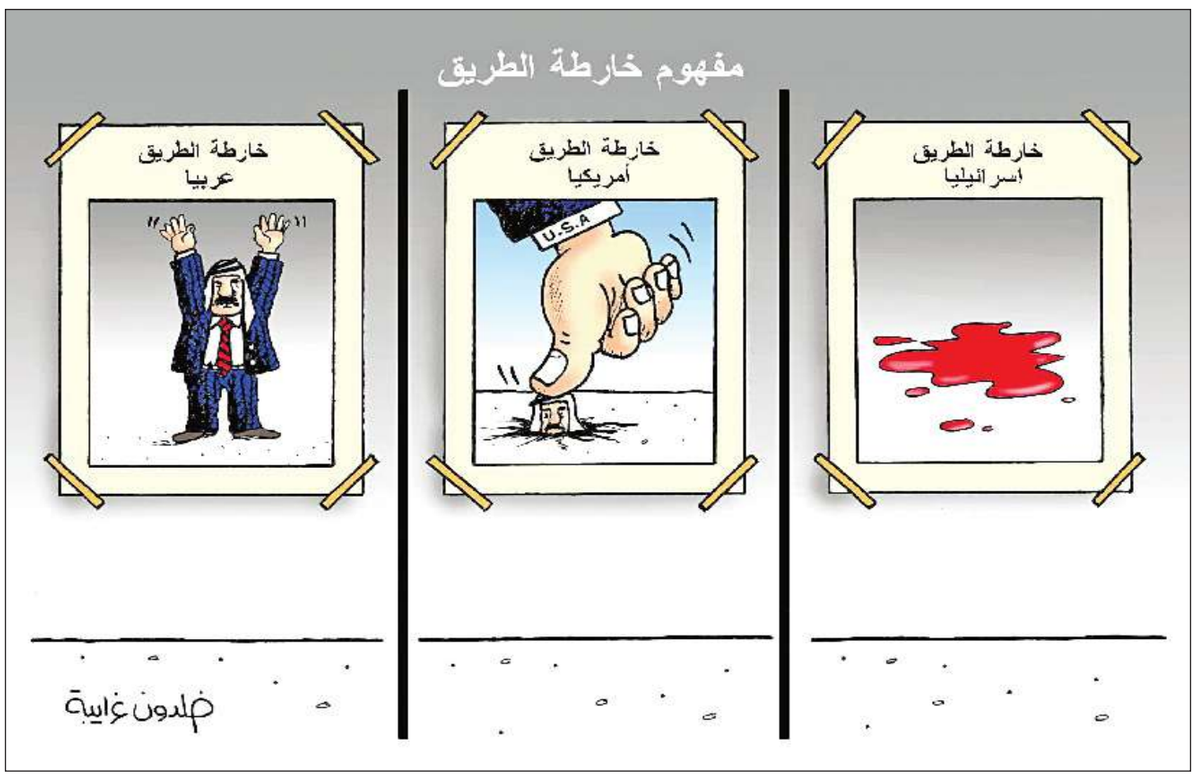

د. عبدالحسين شعبان *

هل هناك من مستقبل للقضية الفلسطينية؟

في جلسة حوار مكثف لمركز الخليج للدراسات، ناقش عدد من المفكرين والمختصين العرب مستقبل القضية الفلسطينية في رؤية أكاديمية قدمها الباحث الدكتور علي الجرباوي، ورؤية سياسية قدمها الباحث والناشط السياسي الدكتور مصطفى البرغوثي، ورؤية فكرية قدمها الباحث الدكتور عزمي بشارة، (قرئت عنه بالنيابة)، وهي وإن كانت مقاربات لرؤية شاملة للقضية الفلسطينية، لكنها بحثت الموضوع من زوايا مختلفة، بتعدد الأجوبة رغم وحدة السؤال.

ففي حين تناول علي الغرباوي المأزق الفلسطيني- العربي في المفاوضات، معتبرا إياه أقرب إلى بناء قصور على الرمال، ذهب عزمي بشارة إلى إعلان عنوان مداخلته باسم: كل معول على إسرائيل لا يعول عليه، أما مصطفى البرغوثي فكان قد بحث الراهن والمستقبلي، في ما يتعلق بالرؤية الفلسطينية وما هو مطروح من حلول ومعالجات بعد فشل المفاوضات.

ولعل الباحثين والمفكرين الفلسطينيين الثلاثة، وإن بدؤوا في أبحاثهم من زوايا مختلفة، إلا أنهم التقوا في نهاية المطاف عند تصورات مشتركة، أساسها هو أن طريق المفاوضات لوحده وصل إلى طريق مسدود، ولا بد من تفعيل أدوات أخرى على المستوى الحكومي العربي أو الجماهيري، بما فيها خيار المقاومة ودعم الصمود وإعادة الوحدة الفلسطينية واستثمار المشاعر الإيجابية لحركة التضامن الدولية، لاسيما بعد العدوان على غزة وهو ما أكدته مداخلات باحثين ومفكرين عرب مشاركين.

وإذا كانت شروط التفاوض نظرياً تتطلب معرفة ودراية وحنكة، لأنه عمل جدي ومعقد ويحتاج إلى خبرة وقدرة، فضلاً عن دقة في التفاصيل وحدود للفريق المفاوض، فإنه يعني، لاسيما للفريق المدافع عن عدالة وشرعية قضية، تقديم تنازلات مسبقة، ولهذا اقتضى الأمر رفع المطالب الابتدائية إلى أعلى سقف. والتفاوض يعني نهاية المطاف قبول بعض الحلول الوسط، الأمر الذي يتطلب الإبقاء على خيارات أخرى غير التفاوض، ولعل عدم التفاوض هو جزء من التفاوض ذاته، وقد يتطلب الأمر تجميد الوضع التفاوضي لحين أو التهديد بخيارات أخرى بما فيها الانتقال من الخيار السياسي والمدني، إلى الخيار العسكري والمسلح!

وإذا كانت المفاوضات السرية وسيلة من وسائل الصراع، فإن القوى الضعيفة لا ينبغي أن تلجأ إليها لأنها ليست في مصلحتها، وذلك بالإشارة إلى مفاوضات مدريد-أوسلو، وبالطبع فإن العكس هو الصحيح فإن القوى القوية والمتنفذة سيكون من مصلحتها أن تلجأ إلى المفاوضات السرية، لكسب الوقت وعدم إعطاء أي تعهدات علنية، وهو الأمر الذي ينبغي إدراكه عند التعاطي مع موضوع المفاوضات.

وإذا طبقنا ذلك على الوضع الفلسطيني فإن المفاوضات السرية وما تمخض عنها أدى إلى انهيار وحدة الموقف الفلسطيني، والإطاحة بموازين القوى لمصلحة إسرائيل، لاسيما باستبعاد الخيار العسكري كلياً، وفقدان زمام المبادرة، خصوصاً بعد التشطير والتفتيت، وهذه الظروف الشديدة الوطأة انعكست سلباً على منظمة التحرير الفلسطينية، وأسهمت في تجميدها كإطار مرجعي للشعب العربي الفلسطيني منذ نحو عقدين من الزمان.

كما أدى الرهان على خيار المفاوضات لوحدها إلى فصل المسارات عن بعضها بعضا، وهو ما كانت إسرائيل تصر عليه منذ اتفاقيات كامب ديفيد والصلح المنفرد مع مصر العام 1978- 1979، وفيما بعد مع الأردن، وهو ما كانت تطمح إليه لفصل المسار السوري عن المسار اللبناني منذ السعي للتوقيع على اتفاق 17 أيار (مايو) العام 1983، الذي تم إلغاؤه، وحالياً فهي تتشبث بشروط أقسى وأشد عندما تعترض على قيادة «حماس» إلى قطاع غزة بهدف تكريس المزيد من الانقسام الفلسطيني-الفلسطيني، وهذا الموقف يلقى دعماً أميركياً وأوروبياً وإلى حدود معينة ليس بعيداً عن تعاطي رئيس الوزراء البريطاني السابق طوني بلير واللجنة الرباعية، بصورة معلنة أو مضمرة.

هل كان اتفاق أوسلو نهاية أم بداية لمشروع الحل؟ يمكن القول إن إسرائيل اعتبرته نهاية لزمن ما تبقى من القضية الفلسطينية، في حين اعتبره الفلسطينيون وبعض البلدان العربية بداية للحل، وهو ما طرح معالجات من دون تكافؤ، فضلاً عن الاعتراف بشرعية إسرائيل مقابل سلطة فلسطينية لا تزيد على حكم ذاتي، وهذه السلطة تتعرض للقضم عبر جدار الفصل العنصري والعدوان المستمر منذ وصول اتفاقيات أوسلو إلى طريق مسدود عام 1999، الأمر الذي دفع الفلسطينيين لإعلان الانتفاضة الثانية منذ 28 أيلول (سبتمبر) عام 2000، رغم أن «إسرائيل» ظلت هي المبادرة والمتحكمة والمتنفذة بالمعابر والحدود والمطار وغيرها، ويستطيع خنق الشعب الفلسطيني في الضفة والقطاع متى ما تريد، في حين ازداد الانقسام الفلسطيني والعربي، كما أن المبادرة العربية التي عرضها الملك السعودي عبدالله بن عبدالعزيز خادم الحرمين، ظلت تراوح في مكانها ولم تتحرك بسبب إهمال وعدم اكتراث «إسرائيل»، بل استخفافها الكامل بها.

لا بد لأي مفاوض من وضوح الهدف ووجود خطة لديه وبرنامج، ولا بد من كفاءة وإلمام بالتفاصيل، فوراء أي مفاوض ناجح هناك سياسي ناجح، ووراء كل قضية قانونية وفقهية، قضية سياسية، فما بالك إذا كانت عادلة ومشروعة!!

وبعد نحو عقدين من التفاوض ما الذي ينتظر القضية الفلسطينية مستقبلاً؟ وما السيناريوهات المحتملة؟ السيناريو الأول: الاستمرار بالعملية التفاوضية مع سعي إلى تعديلها من جانب الطرفين، ولكنه لا يخرج عن إطار أوسلو، حيث ستبقى مشكلة القدس واللاجئين (حق العودة) والمستوطنات والحدود وإقامة الدولة الفلسطينية، كلها معومة ومن دون حلول موعودة، وسيزيد الأمر من قوى التطرف الإسرائيلي خصوصا بعد وصول رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو إلى السلطة بالانتخابات التي جرت قبل أسابيع والكتلة اليمينة المتحالفة معه، وقد أظهرت نتائج الحرب على غزة، أن الأغلبية الساحقة من المجتمع الإسرائيلي المغلق والمتعصب، كان إلى جانبها، كما سيزيد هذا التوجه من نشاط بعض قوى التطرف العربي، بما فيها تنظيم «القاعدة».

أما السيناريو الثاني فيتعلق بخيار آخر، لكنه يتطلب وحدة الموقف عربياً، سواء كان خياراً عسكرياً أو مقاوماً أو ممانعاً، إذ لا مفاوضات ناجحة من دون سياسة ناجحة، وهذا يتطلب إرادة سياسية، وهي غير متوافرة حالياً، فالدبلوماسية والتفاوض هما شكلان من أشكال الصراع، والسياسة هي تعبير عن الصراع بوسائل ناعمة، في حين أن الحرب هي سياسة ولكن بوسائل عنفية ومسلحة، فالأمر بحاجة إلى تراكم وتواصل وتحضير وإلا فإن العدوانية والعنصرية الإسرائيلية سوف لا تترك وسيلة إلا وتستخدمها مثلما عملت منذ 61 عاماً على القضم التدريجي والعدوان المستمر والحرب الدائمة، كجزء من عقلية الاستعمار الاستيطاني الإجلائي.

* باحث ومفكر عربي

زهرة أحمد وراكيش ماني*

ظل الهلال

PROJECT SYNDICATE
AN ASSOCIATION OF NEWSPAPERS AROUND THE WORLD

بينما تذوي باكستان تحت وطأة الأزمة التي تهدد وجودها ذاته، هناك سؤال جوهري يطرح نفسه بشأن طبيعة البلاد: هل مواطنو البلد باكستانيون أولاً ومسلمون ثانياً، أم أنهم مسلمون أولاً ثم باكستانيون ثانياً؟ ما الذي يأتي في المقام الأول من الأهمية هنا، العَلَم أم العقيدة؟

إنه ليس بالسؤال الذي قد يستطيع العديد من الباكستانيين الإجابة عنه بسهولة. يبدو أن الغالبية العظمى ممن يطلق عليهم "أهل النخبة المتعلمة" في البلاد لا يترددون في تعريف أنفسهم بالمسلمين أولاً ثم الباكستانيين في المرتبة الثانية. إن الدين في نظر بعضهم يشكل الأمر الأعظم أهمية في حياتهم، وهم يرون أن ولاءهم لابد أن يكون دوماً للدين. ويعترف آخرون منهم بأنهم لا يكترثون كثيراً بالدين، ولكنهم يقولون إن باكستان لم تعد تعني الكثير في نظرهم حتى أن ولاءهم للدين أصبح يأتي في المقام الأول قبل ولائهم للدولة.

إن هذا الاستعداد لوضع الدولة في مرتبة تالية للعقيدة، حتى بين أصحاب التعليم العالي، يقع في قلب الأزمة التي تعيشها باكستان. فكيف ننتظر من أي دولة أن تزدهر إن كان أغلب مواطنيها يحملون ولاءً ثانوياً لها؟ وكيف لها أن تتقدم إن كانت فكرة باكستان أضعف من الباكستانيين، كما كتب المؤلف البارز مللي جول أكبر؟

ولكن ما هي فكرة باكستان؟

في أيام الأربعينيات المثيرة نجح محمد علي جناح رغم لسانه الإنكليزي وأدبه الفيكتوري في حشد شعب كامل في مسيرة لإقامة دولة، واقتطع للهنود المسلمين وطناً مستقلاً. أما اليوم فإن محامياً مثقفاً واسع الاطلاع وغربي النزعة مثل جناح لن يجد أي فرصة للفوز بانتخابات شعبية في باكستان.

إن جناح الحقيقي لم يعد مؤثراً في البلد الذي يبجله باعتباره مؤسس الأمة. وقليل من الباكستانيين أصبح لديهم الوقت أو الميل إلى التمعن في أفكار مؤسس دولتهم. لقد تراجعت فكرة جناح عن باكستان- قومية إسلامية جنوب آسيوية- لتحل محلها عقيدة عالمية الإسلام.

لقد أسهم رفض الهوية الهندية الهندوسية وتبني ميثاق إسلامي عالمي في صياغة الهوية الباكستانية الحديثة إلى حد كبير. والتقدم الاقتصادي يعني التغريب أو ما هو أسوأ، اكتساب الصبغة الهندية. وعند كل منعطف يبدو الباكستانيون أقرب إلى الاتحاد كأخوة في الإسلام من اتحادهم كأبناء أرض واحدة.

فضلاً عن ذلك فقد أدى خوف باكستان من التشنيع والفشل إلى إفساح المجال أمام نشوء نمط إسلامي مصاب بجنون العظمة يسعى إلى فرض ضوابط أكثر صرامة- على التعليم، وحقوق المرأة، والرقص، وحلق اللحية، والجنس- وتأسيس مجتمع منغلق في وجه أشكال الحداثة كافة. وهذا الشكل المجنون من الإسلام الذي تمثله جماعات متشددة، مثل جماعة التبليغ، هو أسرع أشكال العقيدة الإيمانية نمواً في باكستان.

إن باكستان تقف الآن عند مفترق طرق، وتواجه لحظة غير مريحة من الحقيقة. وإذا كان لها أن تنجو من مأزقها هذا فلابد أن يعمل أبناؤها في انسجام تام وإلا فإنها ستتعرض لخطر تطهير الميول المعتدلة جميعها في البلاد وسط صخب الأصوات الدينية المتشددة.

إن أزمة اليوم تدعو كل مفكر باكستاني إلى توجيه عدد من الأسئلة الجادة إلى نفسه: كيف ينبغي أن تكون فكرة باكستان؟ هل أنا باكستاني أولاً ثم مسلم أو مسيحي أو هندوسي ثانياً؟ أم هل أنا أحد أفراد أمة إسلامية عالمية يعيش في كراتشي أو لاهور؟

إن التحدي الحقيقي والحل المطلق يتلخص في حمل الناس على التفكير في هذه الأسئلة ومناقشتها. ولكن هذه المناقشة لابد أن تدور بين الناس. ولن يتم التوصل إلى أي حلول لأي مشاكل بالبحث عن "الإسلام الحقيقي" أو الاقتباس من القرآن.

بيت القصيد هنا هو أن غالبية أهل البلد يمكن تعريفهم في النهاية ببساطة بأنهم "باكستانيون"، على الرغم من الولاءات الإقليمية القوية والاختلافات الثقافية والدينية المتعددة، وبرغم الاختلافات الجذرية في تعريف الهوية الباكستانية. إن الصفقة الحقيقة في باكستان لابد أن تدور في نهاية المطاف حول التعددية.

اليوم توصلنا إلى النظر إلى أنفسنا باعتبارنا مكونات مختلفة لمُرَكَّب واحد؛ وكثيراً ما نتناقض ونتعارض داخلياً. ففي رسائل بابار على سبيل المثال نرى التناقضات الداخلية في شخصية مؤسس إمبراطورية المغول الكبار. فحين يصف غزوه لمدينة تشاندري في عام 1528 يقدم بابار تفاصيل مروعة للمذبحة الدموية التي حصد فيها أرواح العديد من "الكفار"، ولكن بعد بضع جمل يتحدث باستفاضة عن بحيرات تشاندري وينابيعها المتدفقة ومياهها العذبة. من كان بابار إذن؟ هل كان طاغية متعطشاً للدماء، أم شاعراً إنسانياً، أم الاثنين، وليس بالضرورة أن يكون النقيضان متصارعين؟

إن القومية الباكستانية لابد أن تتوسع إلى أقصى الحدود وأن تكون رحبة إلى الحد الذي يسمح لها باستيعاب البنجاب والسند والبلوتشيين والباثانيين ودياناتهم- الإسلام السُنّي والشيعي، والهندوسية والمسيحية والفارسية والقاديانية، إلى أن يصبح من الممكن أن ندعوهم جميعاً وعلى قدم المساواة "باكستانيين". لابد أن يكون هذا هو الهدف النهائي، والخطوة الأولى على طريق النضال المتعرج نحو إنقاذ باكستان.

إنها لفكرة وطنية تستحق النضال، ولابد أن يكون مفكرو باكستان ونخبتها وشبابها في طليعة المعركة. لقد ألقى الهلال بظله اللانهائي على طول باكستان وعرضها. وكل ما تعانيه باكستان من مآس وإخفاقات يعود إلى ما يرتكب باسم الدين والعقيدة، وليس باسم جناح. ولكي ننقذ باكستان فلابد من تجديد روح جناح وأفكاره، ويتعين على أهل باكستان في النهاية أن يسألوا أنفسهم ماذا تعني باكستان حقاً.

* زهرة مهندسة ومصممة معمارية وكاتبة باكستانية، وتقيم حالياً في نيويورك؛ وماني زميل مبادرة "تعليم من أجل الهند" (Teach for India) لعام 2009.

"بروجيكت سنديكيت" بالاتفاق مع "الجريدة"